



غوطه دمشق مِن دوما شرقاً، إلى المعضمية غرباً وجميع قراها ومدنها، وما أدركَ ما هُنَّ، أعراسُ المدن الدمشقية، وزينَ المدن السورىَّة، عواشقُ الجمال، وارفو الظلال، أحبابُ الرَّحْمَن، في عيون سيدنا النبيِّ محمدٍ العدنان؛ فهُنَّ مُدُنُ الغوطة. أما الآنَ فهُنَّ وخاصةً دارياً الأبية، وزملكاً النقيَّة، وحرستا المنسيَّة، التي دخلتها في لحظةٍ، وصعقتُ في كلِّ خطوةٍ، وانبرهتُ مما رأيتُوها أنا أصفها لكَ أخي القارئ من الداخل، فاسمع وتصور ما رأيتَ:

فهيَ خاويةٌ على عروشها، ترتعُ فيها البومُ والغربانُ، وتسبحُ فيها القاذائفُ والصواريخُ والبراميلُ والطيرانُ، تشمُّ فيها رائحةَ الموتِ، وتعلقُ في حلقكَ غصةُ الحزنِ، وتفرقُ عيناكَ بالدموعِ مِن غيرِ بكاءٍ، وتشدُّهُ من أولِ وهلةٍ، وتُدهشُ في كلِّ لحظةٍ، تقِفُ على أطلالِها وكأنَّكَ الغريبُ المحزونُ، وتنادي على أهلها فلا تسمعُ إلا خريراً مِن ماءٍ أو صريرَ بابٍ، أو عُواةَ كلبٍ أو مُواهَ قطٍّ محزونٍ، تسيرُ في طرقاتها فلا ترى إلا دماراً شاملًا، ولا تسمعُ صوتاً أو همساً، وكأنَّكَ أمامَ تاريخٍ مفتوحٍ، أو آثارٍ مِن ماضٍ مخزونٍ.....آه آه.

أما أهلها فهم بينَ مشردٍ مذبوحٍ، أو كريمٍ مكلومٍ، أو حزينٍ مهمومٍ، أو فَرِحٍ مجروحٍ.
جسدٌ واحدٌ وأماكنُ شتى، إنْ ذهبتَ تبحثُ عنهم فلَمْ يَلِتْ ما فعلتُ، فالعبرة لا تُكَفِّفُ عن خَدَيكَ، والنهدةُ لا تَسْكُنُ عنها شفَّيَكَ، والألمُ لا يُغادرُ ساحةَ قلبكَ، ترى نفسكَ وإيَّاهُمْ أمامَ أشلاءِ لم تَمُتْ، أو ميَّتَنَ لم يُقبروا بعدُ، أو جُثثَ هامدةٍ لم يعاجلُها موتٌ، أو يداهمها سكونٌ، أو يُكْفُكُ حُزْنَها أملٌ، أجل إخوتي ألم... وألم... وألم...
فكِّم ترى من كريمٍ قومٍ مذلولٍ، أو شابٍ عَزِيزٍ مخدولٍ، أو غنيٍّ بيتٍ يَمْدُ يدهُ لطلبِ العونِ، أو شيخٍ عَزِيزٍ مُهانٍ مكلومٍ، أو فتاةٍ حُسْنٍ شاحبةٍ، أو امرأةٍ خيرٍ سائحةٍ غيرٍ طائعةٍ، أو شرفٍ كرامَةٍ كادَ أنْ يَهدَرَ.

ترى أهل بلدتكَ يا سيدِي أمواتاً بصورةِ الأحياءِ، يرجونَ ساعةَ الخلاصِ قبلَ الخلاصِ، ويتمنُونَ الرحيلَ ساعةَ الرحيلِ.
أهل بلدتكَ سيدِي أصبحوا مُنبطحينَ على فُتاتِ كرمِ البلداتِ الأخرى، بل والدولِ الأخرى بعدَ أنْ كانوا مُعزِّينَ مُعَزِّينَ، يدُهمُ أمسَاتٌ مفتوحةٌ للعطاءِ بعدَ أنْ كانتْ بالعطاءِ.

ماذا أقولُ وعنَّ ماذا أتكلَم؟!!،
أمسينا وأصبحنا شحَّادينَ على أبوابِ المحسنينَ، لا أرضَ تُقتلنا ولا سماءَ تُطلُّنا، ولا بيتَ يأويانا ولا سقفَ يُقرِّينا، نرى فصولَ السنةِ الأربعِ، ونحنَ على أرضٍ وفوقَنا سماءً وليسَ بينَهُما شيءٌ، إلا بِمَنْ رَحْمَ ربُّكَ مِنْ فُتاتِ العطاءِ ولا حولَ ولا قوَّةَ ألا باللهِ

العلي العظيم.

ولكن أمّا كلّ هذه الصّرّاعاتِ والألامِ والأحزانِ والآهاتِ إلّا أنَّ أحلامَ الأطفالِ، وأمالَ الرجالِ، وهمَ الشُّبابِ تخرقُ كُلَّ موجودٍ، وتفعلُ فعلَها في الجبالِ والجُدرانِ وكُلَّ عدوٍ لدودٍ، كلمةُ حريةٌ أيقظَتِ الشّيَطانَ، وباتَ يضربُ في كُلِّ البلدانِ، وكلمةُ إسقاطِ أطاراتِ من رأسِهِ كُلَّ عقلٍ، وكلمةُ إعدامِ أحالتُهُ إلى العُصْفُوريَّةِ الشَّعبيَّةِ.

لقدْ جُنَّ مِنَ الْكَلَامِ، فاذلَّ بِالْغَلْمَانِ وَالصَّبِيَّانِ، وَابْنَطَحَ مَهَانًا أَمَامَ جُرَأَةِ وَبِسَالَةِ الْأَبْطَالِ وَالشُّبَابِ، فَلَا تَحْزُنْ عَلَى مَا يَفْعُلُ، فَهِيَ أَيَّامُ الصَّبَرِ الَّتِي قَالَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبَرِ)).....
وَهَذِهِ ثُورَةُ رَبَّانِيَّةٍ كَاشِفَةٍ، خَافِضَةٍ رَافِعَةٍ، فَيَصِلُّ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، مُمَحَّصَّةً الْغَثَّ مِنَ السَّمَئِينِ، وَالْجَنَّةُ عَرْوَسٌ وَمَهْرُهَا بَذْلُ النُّفُوسِ وَمَنْ يَخْطِبُ الْحَسَنَاءَ يَصِبُّ عَلَى الْبَذْلِ.

فيَأَيُّهَا الْكَرَامُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْعَرَبِ لَا تَنْسُوهَا وَأَهْلَهَا، وَارْحَمُوا عَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ، وَتَعَوَّذُوا مِنْ قَهْرِ الرِّجَالِ، وَتَرْحَمُوا عَلَى الشُّهَدَاءِ مِنَ الشُّبَابِ وَالنِّسَاءِ وَالشِّيَوخِ وَالْغَلْمَانِ، فَهُمُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، ((أَكْرَمُ الْعَرَبِ فُرْسًا، وَأَجْوَدُهُمْ سَلَاحًا، يُؤَيِّدُ اللَّهُ بِهِمُ الدِّينَ)) حديث، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((لَا تَسْبِبُوا أَهْلَ الشَّامِ، فَإِنَّ فِيهِمُ الْأَبْدَالَ))، وَيَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَلَا إِنَّهَا سَتَفْتَحُ عَلَيْكُمْ [الشَّامُ] فَعَلِيْكُمْ بِمَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا دَمْشَقُ، فَإِنَّهَا خَيْرُ مَدَائِنِ الشَّامِ]) وَفَسَطَاطُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَرْضِهِ مِنْهَا يُقَالُ لَهَا الْغَوْطَةُ وَهِيَ مَعْقِلُهُمْ))، وَيَقُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ((إِنَّ فَسَادَ أَهْلَ الشَّامِ لَا خَيْرَ فِيهِمْ)).

المصادر: